المجلس المصرى للشئون الخارجية
Egyptian Council For Foreign Affairs
ECFA

أوراق المجلس - العدد 34

الأزمة الأوكرانية
واستدعاء التاريخ

بقلم
د. عزت سعد

أكتوبر 2022

أوراق المجلس - العدد 34

الأزمة الأوكرانية واستدعاء التاريخ *

بقلم
د. عزت سعد

(أكتوبر 2022)

* هذه الورقة نسخة منقَّحة ومزيدة من دراسة بحثية نُشِرت فى: مجلة الديمقراطية (مؤسسة الأهرام)، السنة الثانية والعشرون، العدد 87، يوليو 2022، ص ص 228 – 237.

جميع الآراء الواردة تخص كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر المجلس المصرى للشئون الخارجية

رقم الإيداع بدار الكتب:

المجلس المصري للشئون الخارجية

برج 2 فاخر – أبراج عثمان، كورنيش النيل بالمعادي

تليفون: 6 – 25281091(202)

فاكس: 25281093(202)

البريد الإلكتروني:

info@ecfa-ecfa.egypt@yahoo.com
ecfa.egypt@outlook.com
ecfaegypt@gmail.com
ecfa.egypt.2020@gmail.com

الموقع الإلكتروني:

https://ecfa-egypt.org

فهرس المحتويات

مقدمة 4

أولاً: استدعاء التاريخ من المنظور الروسي 5

ثانياً: التقييم الغربي لسرد روسيا التاريخي 9

ثالثاً: الرؤية الأوكرانية للاستدعاء الروسي للتاريخ 16

رابعاً: دروس التاريخ وفرص تسوية الصراع في أوكرانيا...................................... 18

الهوامش 23

الأزمة الأوكرانية واستدعاء التاريخ

مقدمة:

ترجع جذور الحرب الدائرة اليوم بين روسيا والغرب حول أوكرانيا، إلى فترة نهاية الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفيتي في بداية التسعينيات من القرن الماضي، حيث أنشأت الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها نظاماً أمنياً في أوروبا يقوم على الدور المهيمن لواشنطن والموقع المركزي لحلف شمال الأطلسي (ناتو) كأداة عسكرية وسياسية لضمان الأمن الغربي ونظام ما بعد الحرب بقيادة الولايات المتحدة.

ورغم إدراك الولايات المتحدة لحالة عدم رضاء روسيا عن الوضع الذي وجدت نفسها فيه، إلا أن الأولى فضلت تجاهلها معتبرة روسيا قوة متراجعة أو حتى مهزومة. وفي هذا السياق، عادة ما يُشار إلى أن التاريخ أثبت أنه إذا لم تُدمَج قوة كبيرة مهزومة في نظام ما بعد الحرب، أو إذا لم يُعرض عليها مكان تجده مقبولاً، فإنها ستبدأ بمرور الوقت في اتخاذ تدابير تهدف إلى تدمير ذلك النظام أو، على أقل تقدير، تغييره إلى حد كبير [(1)].

وهكذا، وفي خضم المناقشات التي جرت في بدايات عام 1990 حول مسألة إعادة توحيد الألمانيتين ومستقبل الناتو، كان واضحاً أن التوجه الأمريكي سيكون المضي قدماً نحو تمدد الحلف شرقاً، مع وضع خاص لشرق ألمانيا. ومن خلال اللعب على الضعف الاقتصادي لروسيا – التي لاحظ بوتين في استدعائه للتاريخ "أنها نفسها ساعدت في انهيار الاتحاد السوفيتي عام 1990 / 1992" – وتقديم إغراءات اقتصادية بالاشتراك مع ألمانيا الغربية آنذاك، سمح آخر زعيم سوفيتي في نهاية المطاف لألمانيا بإعادة توحيد مناطقها الشرقية والانضمام إلى الناتو في 3 أكتوبر 1990، مما سمح للحلف بالتوسع وسط تصميم أمريكي على التفوق في عالم أحادي القطبية بعد الحرب الباردة، والإصرار على وضع نهاية لأي مجالات نفوذ لروسيا عبر خط المواجهة القديم في الحرب الباردة [(2)]. ومنذ تلك الفترة وحتى عام 2020، وقعت خمس موجات توسع للحلف، ولم يكن لدى موسكو الوسائل الكافية لوقفها، أو ما يكفي من النفوذ أو وسائل الضغط على البلدان المعنية لوقف انضمامها. ومن الواضح أن تقدير الرئيس بوتين، مع عمليته العسكرية في أوكرانيا التي أطلقها في 24 فبراير الماضي وانتصف شهرها الثالث – أن لديه الآن الوسائل التي يمكنه استخدامها لمنع المزيد من التوسع، خاصة وأن أربع موجات توسعية حديثة قد تمَّت خلال فترة حكمه. وقد

حرص الرئيس الروسي في خطابه في 21 فبراير الماضي، حول قرار الاعتراف باستقلال إقليمَي دونيتسك ولوجانسك الانفصاليين كجمهوريتين شعبيتين، وكذا خطابه في 24 من الشهر نفسه الذي أعلن فيه إطلاق عمليته العسكرية في أوكرانيا، على شرح رؤيته للتطورات التي قادت إلى قيام أوكرانيا كدولة ضمن الاتحاد السوفيتي السابق ثم كدولة مستقلة ذات سيادة عام 1991، وتوجهاتها الخارجية وعلاقاتها بجارتها روسيا التي كانت أول مَن اعترف بها، وذلك لتبرير تدخله العسكري الذي قدمه على أنه بمثابة حرب استباقية مشروعة استهدفت حماية مصالح روسيا وأمنها القومي، بينما يؤكد الغرب أن الأمر يتعلق بحرب توسعيه يستهدف بها بوتين استعادة الاتحاد السوفيتي السابق.

ويتناول هذا المقال رؤية الرئيس الروسي بوتين لعلاقات بلاده بأوكرانيا في السياق الأوسع للعلاقات الأمريكية / الروسية (أولاً)، والموقف الغربي من هذه المسألة (ثانياً)، ثم الرؤية الأوكرانية (ثالثاً)، وأخيراً دروس التاريخ وفرص تسوية الصراع الدامي الجاري في أوكرانيا منذ 24 فبراير 2022 وحتى الآن (رابعاً)، وذلك على التفصيل التالي:

أولاً: استدعاء التاريخ من المنظور الروسي:

في العديد من خطبه، ارتباطاً بالتطورات في أوكرانيا وعلاقاتها بروسيا، وآخرها خطابي 21 و24 فبراير الماضي، حول قرار الاعتراف باستقلال إقليمي دونيتسك ولوجانسك الانفصاليين كجمهوريتين شعبيتين، ثم إطلاقه "العملية العسكرية الخاصة، كثيراً ما أكد الرئيس بوتين على الهوية الوطنية الروسية وإرث البلاد الثقافي والتاريخي، ليس في اللحظة الراهنة فقط، بل في التاريخ القديم والمعاصر، ليوضح للعالم الخارجي التجاهل المتعمد والتعسف الذي قوبلت به مصالح روسيا عقب سقوط الاتحاد السوفيتي، وذلك لكي يصل إلى نتيجة مفادها أن روسيا ترى أنه من غير المقبول أن تسعى دولة أوكرانيا، التي اعترفت روسيا بسيادتها على الفور في عام 1991، إلى تشكيل حكومة تسعى إلى الاندماج في حلف الناتو والاتحاد الأوروبي، وتحد من استخدام اللغة الروسية، وتشجع على "تأميم" الكنيسة الأرثوذكسية في أوكرانيا. وفي هذا السياق، عادة ما يؤكد الرئيس بوتين عدداً من النقاط تناولها بالتفصيل في خطابه في 21 فبراير الماضي [3]، أبرزها:

1- أن أوكرانيا ليست مجرد دولة جوار مباشر لروسيا، "فهي جزء لا يتجزأ من تاريخنا وثقافتنا وفضائنا المعنوي. هؤلاء ليسوا رفاقنا وزملائنا وأصدقاءنا فحسب، بل هم أيضاً أقاربنا، تربطنا بهم صلة الدم وروابط عائلية".

2- وفقاً لبوتين، "تأسست أوكرانيا بالكامل من قبل روسيا، كحقيقة، حتى من قبل روسيا البلشفية الشيوعية، وبدأت هذه العملية فور ثورة 1917، حيث "عمل (فلاديمير) لينين وأصدقاؤه بشكل فج جداً ضد مصالح روسيا من خلال فصل جزء من أراضينا التاريخية وتمزيقها إرباً. وعشية الحرب الوطنية العظمى (الحرب العالمية الثانية) وبعدها، وحّد (جوزيف) ستالين بالفعل الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية، ونقل ملكية بعض الأراضي التي كانت في السابق تابعة لبولندا ورومانيا والمجر إلى أوكرانيا. في الوقت نفسه، وكنوع من التعويض، أعطى ستالين بولندا جزءاً من الأراضي الألمانية. وفي عام 1954 اقتطع" (نيكيتا) خروتشوف، لسبب ما، شبه جزيرة القرم من روسيا ووهبها لأوكرانيا. في الواقع، بهذه الطريقة تشكلت أراضي أوكرانيا السوفيتية".

3- يؤكد بوتين أن السلطات الأوكرانية "بدأت، ومنذ الخطوة الأولى في بناء دولتها، بإنكار كل ما يوحدنا. لقد حاولوا تشويه الوعي والذاكرة التاريخية لملايين الأشخاص الذين يعيشون في أوكرانيا، من جميع الأجيال. ليس من المستغرب أن المجتمع الأوكراني سرعان ما واجه صعود القومية المتطرفة، والتي اتخذت شكلاً عدائياً ضد روسيا مع نزعة نحو النازية الجديدة. ويضيف أنه "من المهم أيضاً أن نفهم أن أوكرانيا لم يكن لديها في الواقع تقليد ثابت لدولة حقيقية. وبدءًا من عام 1991، اختارت كييف مسار النسخ التلقائي لنماذج أخرى، منفصلة عن التاريخ والواقع الأوكراني ... إن الغرض الكامل من تفضيل حكومة الأوليجاركية الأوكرانية لما يسمى بالحضارة الموالية للغرب ليس خلق ظروف أفضل لرفاهية الشعب، بل لخدمة إطاعة أوامر خصوم روسيا الجيوسياسية ... لقد تمت محاولة استخدام الحوار مع روسيا من قبل السلطات في كييف كذريعة للمساومة مع الغرب، وتم ابتزاز الغرب من خلال التقارب مع موسكو، والتلويح بتزايد نفوذ روسيا على أوكرانيا".

4- كثيراً ما تحدث بوتين بمرارة عن أوضاع سكان جنوب شرق أوكرانيا الروس، وكيف أنهم يتعرضون لحملات قمع وانتهاكات لحقوقهم من مَن أسماهم بالقوميين المتطرفين و "النازيين الجدد" "بدعم من الحكومة في كييف أو بتجاهل منها، خاصة منذ عام 2014 بعد "انقلاب الميدان" بتورط وانخراط امريكي مباشر.

5- يشير بوتين إلى أنه في مارس 2021، أقرت أوكرانيا وثيقة استراتيجية عسكرية جديدة، خصصت تقريباً للمواجهة مع روسيا، واستهدفت جر الدول الأجنبية للاشتباك معها. "وتزعم هذه الاستراتيجية أن هناك إرهاباً في أراض دونباس وفي القرم الروسية ... كما تكشف الوثيقة عن إطار الحرب المقترح". وينقل بوتين عن الوثيقة حديثها عن "الطروف المواتية لأوكرانيا في النزاع الجيوسياسي مع روسيا، وبدعم عسكري من قبل المجتمع الدولي"، ليخلص من ذلك إلى القول: "في الحقيقة هذه ليست سوى تحضيرات للعدوان على روسيا".

6- تناول بوتين علاقة أوكرانيا بالناتو مشيراً في ذلك إلى أن الوحدات العسكرية التابعة للحلف متواجدة دوماً في الأراضي الأوكرانية خلال السنوات الأخيرة بزعم إجراء مناورات، وأن منظومة إدارة وقيادة القوات الأوكرانية باتت منسجمة مع نظيراتها لدى الناتو. "وحتى الوحدات والأقسام العسكرية الأوكرانية، قابلة للإدارة والقيادة المباشرة من قبل مقر الناتو ... قامت الولايات المتحدة والناتو بالدخول إلى أوكرانيا لكونها ساحة محتملة للعمليات العسكرية، وكانت المناورات العسكرية المشتركة تركز بشكل أساسي على روسيا، والأجواء الأوكرانية مفتوحة أمام طائرات الاستطلاع الأمريكية، حيث تقوم باستطلاع الأراضي الروسية".

7- يؤكد بوتين دائماً على أن ضم أوكرانيا إلى الناتو يعد تهديداً مباشراً ضد روسيا، وأن وعود الغرب بعدم تمدد الحلف شرقاً لم تنفذ، مضيفاً أن الناتو: "أصبح هو سبب الأزمة في الأمن الأوروبي، وأثّر بشكل مباشر على العلاقات الدولية وفقدان الثقة، والوضع بدأ يتدهور، بما في ذلك في المجال الاستراتيجي، حيث تؤكد الوثائق الأمريكية، بأن روسيا هي التهديد الأساسي للناتو، وهذا يعني أن أوكرانيا ستكون القاعدة المناسبة من أجل توجيه مثل هذه الضربة ... مطارات عديدة في أوكرانيا

نشر فيها طيران تكتيكي للناتو يمكن أن يضرب أراضينا وصولاً إلى "فالجاجراد"، كما تم نشر رادارات في أوكرانيا بإمكانها أن تسيطر على الفضاء الروسي حتى الأورال...".

وهكذا تشير تقديرات روسية إلى أنه بعد نحو ثلاثين عاماً من الترتيبات المجحفة بروسيا التي تلت سقوط الاتحاد السوفيتي وانتهاء الحرب الباردة، لم يعد الرئيس بوتين مستعداً للقبول بمزيد من توسيع الناتو، وأنه بمقدوره اتخاذ التدابير اللازمة لكسر النظام الحالي ومحاولة تغييره حتى لو اقتضى الأمر استخدام القوة العسكرية.

وهكذا تشير تقديرات روسية أنه أخذاً بدروس التاريخ، ومنها التسويات المجحفة بألمانيا إبَّان الحرب العالمية الأولى، فإن ذلك يتوقف بطبيعة الحال على امتلاك ما يكفي من القوة والإمكانات المادية، وامتلاك قيادة الدولة الإرادة السياسية والدعم الشعبي. وفي روسيا، بدأت هذه الظروف تتشكل في النصف الأول من عام 2010، وهو ما يتبدى بوضوح في رد فعل موسكو على الأزمة في أوكرانيا وما تلاها من مواجهة مع الولايات المتحدة وانهيار العلاقات مع الاتحاد الأوروبي[(4)]. ومن المهم في سياق استدعاء التاريخ أنه على مدى العقد الأخير من المواجهة مع الغرب، استمرت السياسة الخارجية الروسية في التطور، من التكيف مع الحقائق الجديدة المزعجة لروسيا إلى محاولات منع الموقف الجيوسياسي للبلاد من التدهور أكثر مما هو عليه، مع تغيير الوضع لصالح روسيا، إن أمكن. وقد ظلت وسائل روسيا في ذلك، وحتى بدايات عام 2021 مع دخول بادين البيت الأبيض، كما كانت عليها في عهد جورباتشوف، أي السعي إلى التوصل لتفاهمات متبادلة وإقامة علاقات شراكة مع الولايات المتحدة وأوروبا. وقد سعى الرئيس بوتين، عبر مناقشات تلفزيونية مطولة مع محاورين أمريكيين طرح خلالها رؤيته على النحو السابق الإشارة إليه على أمل إقناع الرأي العام الأمريكي بأن المصالح الروسية لا تتعارض مع مصالح الولايات المتحدة، وأن موسكو وواشنطن يمكن، بل وينبغي، أن توحِّدا جهودهما ضد التحديات العالمية مثل الأمن العالمي والتهديدات الإرهابية والجائحة [(5)].

ومع قيام القوات الروسية بإجراء مناورات عسكرية واسعة على طول الحدود الأوكرانية في ربيع 2021، قام الرئيس بايدن بدعوة نظيره الروسي للاجتماع معه في جنيف في 16 يونيو 2021، رغم أن روسيا لم تكن ضمن أولويات البيت الأبيض. وكانت النتائج العملية الوحيدة لاجتماع الرئيسين هي إطلاق

مشاورات حول الاستقرار الاستراتيجي والأمن السيبراني، وهي مشاورات لم تستمر سوى أشهر قليلة ولم تسفر عن أية نتائج [6].

وفي كل الأحوال، فإنه من المهم الإشارة إلى أن مطالب موسكو من الولايات المتحدة والناتو، ليست في الواقع سوى الأهداف الاستراتيجية للسياسة الروسية في أوروبا، والتي كثيراً ما ألحت عليها روسيا منذ خطاب بوتين الشهير في فبراير 2007 في مؤتمر ميونخ لسياسات الأمن، والذي وصف فيه انهيار الاتحاد السوفيتي بأنه "الكارثة الجيوسياسية الأكبر في القرن العشرين". ولم يكن الهدف هو استعادة الاتحاد السوفيتي، كما يشير العديد من المحللين الغربيين[7]، وإنما هو إعادة صياغة الأمن في أوروبا، الشغل الشاغل لموسكو، خاصة في شرق أوروبا، كعلاقة تعاقدية بين الجهات الاستراتيجية الفاعلة الرئيسية في المنطقة، وتحديداً روسيا والولايات المتحدة والحلف، وبالتالي وضع نهاية لاحتكار الولايات وحدها لهذه المسألة، التي تعتبرها موسكو بمثابة مصلحة حيوية للأمن القومي. وإذا لم تتمكن روسيا من تحقيق هذا الهدف بالوسائل الدبلوماسية، فقد تضطر إلى اللجوء لأدوات وأساليب أخرى وهو ما حدث بالفعل، حيث استخدمت روسيا القوة العسكرية للمرة الأولى منذ نهاية الحرب الباردة لمنع المزيد من التوسع للتحالف الغربي إلى الأراضي السوفيتية السابقة، خاصة وأن توجّه كييف الغربي يحمل في طياته احتمال أن ينفصل ذلك الجزء من جوهر روسيا التاريخية عن روسيا إلى الأبد[8].

<u>ثانياً: التقييم الغربي لسرد روسيا التاريخي:</u>

في تقدير بعض المحللين الأمريكيين أن ما يعتبره الرئيس بوتين "عملية عسكرية خاصة" هو نوع من الحرب الاستباقية تستهدف حماية الأمن القومي الروسي، وأن حديثه عن الهوية الوطنية المشتركة والإرث الثقافي والروابط التاريخية والدينية العميقة التي تجمع روسيا وأوكرانيا، هي كلها مجرد ادعاءات، وأن حرب روسيا لها أهداف توسعية تؤكد عزم بوتين على المضي قدماً في استعادة روسيا كقوة عظمى على غرار الاتحاد السوفيتي السابق، ومن ثم فإنه يتحمل المسئولية الكاملة عن الحرب في أوكرانيا. وتضيف وجهة النظر هذه أن المساعدات العسكرية التي يقدمها الغرب بقيادة الولايات المتحدة لأوكرانيا، والعقوبات الاقتصادية غير المسبوقة التي فرضها على روسيا لها ما يبررها تماماً، بل هي واجب أخلاقي وقانوني[9].
ويُعلِّق بعض الكُتّاب الأمريكيون على خطاب بوتين فى 21 فبراير الماضي بأنه جزء من نظرته للعالم، وأن

للأوكرانيين تاريخاً وطنياً غنياً يعود إلى قرونٍ مضت. هذا فيما تُشكِّك الباحثة "آنا ريد" في المقولة الشهيرة لزبيجنيو بريجنسكي مستشار الأمن القومي الأمريكي الأسبق بأنه "بدون أوكرانيا، تتوقف روسيا عن أن تكون إمبراطورية"، بالقول بأن روسيا بدون أوكرانيا تظل اليوم إمبراطورية شاسعة متعددة الأعراق [10]. ومع ذلك، تضيف "ريد" أن موسكو فقدت غربها مع انهيار الاتحاد السوفيتي وحلف وارسو، وأنه بالنسبة لبوتين، كانت الإمبراطورية الأوروبية الروسية مهمة للغاية، لأن البلاد كانت ترى نفسها دائماً كقوة أوروبية، وليس آسيوية [11]. وفي هذا السياق، يذهب بعض المحللين إلى التأكيد على أن الحرب الباردة لم تنته أبداً وأن حرب روسيا ضد أوكرانيا دليل على ذلك، حيث ماتزال المنافسة الأيديولوجية قائمة، وأنه من الخطأ الاعتقاد بأنها حُسمت بشكل نهائي لصالح واشنطن[12].

وهناك وجهة نظر أخري لبعض المحللين الأمريكيين، ومنهم "ألكسندر فيندمان" الضابط السابق، في الجيش الأمريكي ومدير الشئون الأوروبية الأسبق في مجلس الأمن القومي، الذي يعتقد انه على مدي العقود الثلاثة الماضية انحنت الولايات المتحدة إلى الوراء للاعتراف بمخاوف روسيا الأمنية وتهدئة هذه المخاوف". ويضيف أن الولايات المتحدة فعلت ذلك "على حساب العلاقات مع الشركاء الأكثر استعداداً في أوروبا الشرقية – أوكرانيا على وجه الخصوص. وبدلاً من دعم التحركات المبكرة للاستقلال الأوكراني عام 1991، على سبيل المثال، سعت واشنطن إلى الحفاظ على الاتحاد السوفيتي الفاشل خوفاً، في غير محله، من احتمال انهياره إلي حرب أهلية. وبدلاً من فرض للديمقراطية في الخارج، بما في ذلك في أوكرانيا، غضت واشنطن الطرف في الغالب في جهد غير مثمر للتعامل بشكل تعاوني مع موسكو"[13].

وقد وجد فيندمان من يفنّد روايته المشار إليها والتي تبدو بالفعل غريبة، حيث كتب كلٌ من "صامويل شاراب" و"مايكل مازار" في دورية الشئون الخارجية في سبتمبر 2022 مؤكدين "أن رواية فيندمان تسيء قراءة تاريخ السياسة الأمريكية تجاه روسيا وجيرانها في حقبة ما بعد الاتحاد السوفيتي. وفضلاً عن ذلك، وعلى الرغم من مزاعمة، فإن علاقة أكثر تصادمية مع روسيا لم تكن لتخدم المصالح الأمريكية". ويضيف الكاتبان أن جهود واشنطن لإقامة شراكة مع موسكو، كانت مقيدة بعناية لتجنب حتى الانطباع بأنها تتعامل مع قوة عظمي، وأنه عندما تباعدت المصالح الأمريكية والروسية، لم تتردد الولايات المتحدة في التحرك.

وعلى سبيل المثال، وفي ذروة دفء العلاقات الثنائية بين البلدين عام 1990، سعت واشنطن بنشاط إلى توسيع الناتو والتدخل في كوسوفو، ونشر الدفاعات الصاروخية الباليستية في مواجهة اعتراضات شديدة من موسكو. ويقول الكاتبان انه خلافاً لمزاعم فيندمان، كانت السياسة الأمريكية دائماً غير توفيقية في الحوار المباشر لروسيا، واستهدفت منع قيام "طاغوت إقليمي جديد" تقوده موسكو بعد انهيار الاتحاد السوفيتي. ويؤكد الكاتبان أن أوكرانيا كانت النقطة المحورية للجهود الأمريكية في المنطقة، خاصة بعد ثورتيها عامي 2005 و2014، وأن أي تردد في احتضان أوكرانيا تاريخياً، لم يكن ناتجا عن رغبة في الخضوع لموسكو (على نحو ما يدعي فيندمان)، وإنما بسبب "الخلل الوظيفي المزمن في ذلك البلد". ويخلص الكاتبان إلى القول بأن "رفض الخطوط الحمراء المعلنة لروسيا كان هو القاعدة لسياسة الولايات المتحدة تجاه المنطقة، وكان احترام هذه الخطوط هو الاستثناء" (14).

وكثيراً ما يركز هؤلاء المحللين، وأيضاً القادة في تصريحاتهم ارتباطاً بالحرب، على سردية "الاستبداد " مقابل "الديمقراطية"، للوصول إلى نتيجة مفادها أن "الطغاة" عادة ما يصعب عليهم تبني سياسة خارجية مستنيرة تخدم شعوبهم، وأنه من الأفضل التخلص منهم كواجب أخلاقي على الدول الديمقراطية (15). ويتفق هؤلاء الكتاب على أن قرار الرئيس بوتين بغزو أوكرانيا حالفه سوء تقدير استراتيجي "ذي أبعاد تاريخية" وأن قراءته للغرب كانت خاطئة. فقد أقنعته تجربته الشخصية الطويلة بأن الغرب سيتخلى عن أوكرانيا، خاصة مع الاستجابة الدولية الضعيفة لحروب روسيا في الشيشان وجورجيا، وضمها شبه جزيرة القرم عام 2014، ودعمها لنظام الأسد (16).

وعلى العكس من وجهة النظر عاليه، يؤكد عدد من المحللين والخبراء في العلاقات الأمريكية الروسية أنه وإن كانت روسيا تتحمل قدراً كبيراً من المسئولية عن تدهور علاقتها بالولايات المتحدة، إلا أن السياسة الأمريكية في التعامل مع روسيا تجاهلت إلى حد كبير عوامل حاسمة مثل تاريخ روسيا، وثقافتها، وجغرافيتها، ومتطلباتها الأمنية كما تراها موسكو. وقد اتبعت الإدارات الأمريكية طوال ثلاثة عقود نفس السياسات غير الواقعية التي أسهمت في فشل العلاقة (17).

ويُرجِع هؤلاء الخبراء أساس فشل العلاقة إلى عاملين رئيسيين: الأول هو رفض الولايات المتحدة قبول روسيا بما هي عليه، على نحو ما يتضح من المبادرات المتكررة لإصلاح نظامها السياسي وإعادة

تشكيله، على الرغم من رفض الكرملين تعزيز الديمقراطية في روسيا وحولها، باعتباره تهديداً للاستقرار الداخلي. أما العامل الثاني فيتمثل في إصرار واشنطن على أن الناتو هو المنظمة الأمنية الشرعية الوحيدة لأوروبا وأوراسيا، ومد البنية الأمنية الأوروبية الأطلسية إلى الفضاء الأوراسي المحيط بروسيا، والذي يمثل تهديداً للأمن الروسي من وجهة نظر موسكو. وتذهب وجهة النظر هذه إلى القول بأن صناع القرار السياسي في الولايات المتحدة بالغوا، مراراً وتكراراً، في تقدير قدرة أمريكا على التأثير في التطورات في روسيا وعلى الكرملين. فقد حددوا المصالح الأمريكية بأكثر العبارات توسعاً، وفشلوا في التمييز بين المخاوف الأساسية والهموم الهامشية وإعطاء الأولوية لها. وعندما تراجعت موسكو، أكدت واشنطن على حقها ومسئوليتها في تعليم روسيا وجيرانها كيفية إدارة شئونهم دون أخذ الاعتراضات الروسية في الاعتبار. في المقابل، يقدر هؤلاء أنه ينبغي تفهم واقع أن قادة روسيا يرون أن بلادهم قوة عظمى تتولى زمام مصيرها بنفسها، ولا يقبلون التفوق الأمريكي ويرغبون في التعجيل بالتحول من عالم أحادي القطبية إلى عالم متعدد الأقطاب، كما ينظرون إلى الترويج للديمقراطية باعتباره غطاء لتغيير النظام[18].

في السياق عاليه، عارض كُتّاب ما يسمى بالواقعية الأخلاقية أو مدرسة "ضبط النفس" أو السياسة الواقعية، توسع الحلف إلى الفضاء السوفيتي السابق، على أساس أن ذلك لم يكن ضرورياً للأمن الغربي، وأنه سيؤدي حتماً إلى انهيار خطير للغاية في العلاقات مع روسيا[19]. ويشار في ذلك إلى أن واشنطن استغلت الانهيار الاقتصادي لموسكو في تحويل انتباه جورباتشوف بعيداً عن إزالة الأسلحة النووية الموجودة في ألمانيا الغربية، والتي كان هناك تقدير غربي باستعداد الزعيم السوفيتي مقايضتها بإعادة توحيد الألمانيتين، وتقديم الإغراءات الاقتصادية لهذا الغرض. ودخلت ألمانيا حلبة الإغراءات بأشكال مختلفة من الدعم، مما أدى في النهاية إلى موافقة جورباتشوف على طلب ألمانيا إعادة توحيد شطرها الشرقي والانضمام إلى الحلف في 3 أكتوبر 1990، مما سمح للحلف بالتوسع لأول مرة عبر خط المواجهة القديم في الحرب الباردة[20]. وبحلول 11 أكتوبر 1991، انتقل بوش إلى هدف أكثر طموحاً، حيث حصل من "مانفريد ورنر" أمين عام الحلف آنذاك على مشورة إمكانية انضمام دول البلطيق للحلف دون مشاكل. وفي ديسمبر 1991، كان الاتحاد السوفيتي قد رحل، ومن بعده بوش بعد خسارته أمام كلينتون في انتخابات 1992، ومضت موجات توسيع الحلف دون مشاكل جدية مع حالة عدم الاستقرار السياسي والاقتصادي خلال عقد التسعينات وما بعده[21]. وفي أول جولة أوروبية له كرئيس، سأل كلينتون قادة الحلف: "لماذا

ينبغي لنا الأن أن نرسم خطاً جديداً عبر أوروبا إلى الشرق قليلاً؟، إن من شأن عدم القيام بذلك أن تجلس أوكرانيا الديمقراطية على الجانب الخطأ". وكلما زاد عدد البلدان المنضمة للحلف، زاد الضرر الذي لحق بالعلاقات مع روسيا، إلى أن وصل المد إلى الحدود السابقة للاتحاد السوفيتي. وفي أبريل 1999، رحب الحلف علناً، في قمة الذكري الخمسين لتأسيسه في واشنطن، بانضمام إستونيا ولاتفيا وليثوانيا إلى جانب ست دول أخري كأعضاء كاملي العضوية. وتجاهلت الولايات المتحدة عبارات القلق الهادئة من قادة الدول الإسكندنافية الذين أشاروا إلى استصواب الالتزام بحلول أكثر تماسكاً للمنطقة التي ينتمون اليها. وأدي التدخل العسكري الذي قام به الحلف في كوسوفو في مارس 1999 – والذي عارضته روسيا بشدة – إلى تحويل ذلك العام إلى نقطة تحول في العلاقات الأمريكية الروسية. ففي إسطنبول، وعلى هامش قمة منظمة الأمن والتعاون في أوروبا في 19 نوفمبر 1999، وجه يلتسين سيلاً من الاتهامات لكلينتون. ووفقاً للنص الأمريكي لمحادثة خاصة قصيرة بين كلينتون ويلتسين، قدم الأخير مطالب شاملة، قائلاً لنظيرة الأمريكي: "فقط أعطي أوروبا لروسيا لأن الولايات المتحدة ليست في أوروبا.. ينبغي أن تكون أوروبا من شأن الأوروبيين" [22].

وقد أشار الباحث السياسي المعروف "جون ميرشايمر" في هذا السياق، إلى "أن الغرب، وخاصة الولايات المتحدة، مسئول بصفة أساسية عن الأزمة التي بدأت في أوكرانيا في فبراير 2014، والتي تحولت الآن إلى حرب لا تهدد بتدمير أوكرانيا وحدها فحسب، وإنما ينطوي أيضاً على احتمال التصعيد إلى حرب نووية بين روسيا والناتو[23]. ويشير "ميرشايمر" إلى أن المشاكل بشأن أوكرانيا بدأت فعلياً في قمة الحلف في بوخارست في أبريل 2008، عندما ضغطت إدارة جورج بوش (الابن) على بقية أعضاء التحالف من أجل إعلان أن أوكرانيا وجورجيا "ستصبحان عضوتين في الحلف". وقد رد القادة الروس آنذاك على الفور بالغضب، ووصفوا هذا القرار بأنه تهديد وجودي لروسيا وتعهدوا بإحباطه. ويمضي ميرشايمر قائلاً إن بوتين حذر من أنه "إذا انضمت أوكرانيا إلى الناتو، فإنها ستفعل ذلك بدون شبه جزيرة القرم والمناطق الشرقية، أي أنها – ببساطة – ستنهار"، واعتبر بوتين هذا الانضمام بمثابة خط احمر بالنسبة لموسكو. وبالتوازي مع الضغط من أجل ضم أوكرانيا للحف، يري ميرشايمر أن الاستراتيجية الأمريكية للضغط على روسيا تضمنت عنصرين أخرين: جلب أوكرانيا أقرب إلى الاتحاد الأوروبي، وجعلها ديمقراطية موالية للولايات المتحدة. وقد قادت هذه الاستراتيجية في النهاية إلى اندلاع العنف في فبراير 2014 بعد

انتفاضة دعمتها الولايات المتحدة، انتهت إلى فرار الرئيس الأوكراني المنتخب آنذاك فيكتور يانوكوفيتش من البلاد. وجاء رد روسيا باستعادة شبه جزيرة القرم من أوكرانيا وتأجيج حرب أهلية اندلعت في منطقة دونباس شرق أوكرانيا.

ويضيف "ميرشايمر" أن ما يجري اليوم في أوكرانيا هي عملية بدأت في ديسمبر 2017 عندما قررت إدارة ترامب بيع كييف "أسلحة دفاعية"، والتي بدت هجومية لموسكو وحلفائها في منطقة "دونباس"، ثم دخلت دول الناتو الأخرى على هذا الخط وشحنت بدورها أسلحة إلى أوكرانيا، ودربت قواتها المسلحة، وسمحت لها بالمشاركة في التدريبات الجوية والبحرية المشتركة. وفي يوليو 2021، استضافت أوكرانيا والولايات المتحدة تدريبات بحرية كبيرة في منطقة البحر الأسود شاركت فيها قوات بحرية من 32 دولة. وكادت هذه العملية – التي سُمِّيت بـــ "نسيم البحر Sea Breeze" – أن تدفع روسيا إلى إطلاق النار على مدمرة تابعة للبحرية البريطانية دخلت عمدًا ما تعتبره روسيا مياهها الإقليمية. ويشير ميرشايمر إلى أن علاقات أوكرانيا بالولايات المتحدة في ظل إدارة بايدن شهدت تطوراً حيث وقع الجانبان وثيقة مهمة هي "ميثاق الشراكة الاستراتيجية" بين البلدين، وقعها وزيرا الخارجية في نوفمبر 2021 وكان الهدف هو "تأكيد التزام أوكرانيا بتنفيذ الإصلاحات العميقة والشاملة اللازمة للاندماج الكامل في المؤسسات الأوروبية والأوربية / الأطلسية، كما تؤكد الوثيقة على أن البلدين يسترشدان بـــ "إعلان قمة بوخارست عام 2008".

والحال على ما تقدم، بدأت موسكو في حشد جيشها على حدود أوكرانيا في ربيع 2021 لتكون ذلك مؤشراً لواشنطن على عزمها التصعيد. ولم تكترث واشنطن لهذا الحشد، حيث واصلت إدارة بايدن الاقتراب أكثر من أوكرانيا. وقد أدى ذلك، وفقاً لميرشايمر، إلى تعجيل روسيا بإطلاق مواجهة دبلوماسية كاملة في ديسمبر 2021. وكما قال وزير الخارجية الروسي سيرجي لافروف: "لقد وصلنا إلى نقطة الغليان". وطالبت روسيا بضمانة خطية بأن أوكرانيا لن تصبح في أي وقت جزءاً من الناتو، وأن الحلف سيزيل الأصول العسكرية التي نشرها في أوروبا الشرقية منذ عام 1997. وقد فشلت المفاوضات اللاحقة، كما أوضح وزير الخارجية الأمريكي بلينكن: "لا يوجد تغيير ... لن يكون هناك تغيير". وبعد شهر من ذلك "أطلق بوتين غزوا لأوكرانيا بهدف القضاء على التهديد الذي رأي أنه موجه إلي بلاده من الناتو". ويقدر ميرشايمر أن هذا التفسير للأحداث يتعارض مع السردية السائدة في الغرب، والتي تصور توسع الناتو على

أنه لا علاقة له بأزمة أوكرانيا، وتلقي اللوم بدلاً من ذلك على أهداف بوتين التوسعية. ووفقاً لوثيقة الناتو الأخيرة التي تم أرسالها إلى القادة الروس، فإن "الناتو هو تحالف دفاعي ولا يشكل أي تهديد لروسيا". غير أن الأدلة المتاحة – وفقاً لميرشايمر – تتعارض مع هذه الادعاءات. وكبداية، فإن القضية المطروحة ليست ما يقول القادة الغربيون أنها أهداف الناتو أو نواياه، إنها الكيفية التي تري بها موسكو تصرفات الناتو.

ويؤكد ميرشايمر أن بوتين يدرك جيداً أن تكاليف احتلال مساحات كبيرة من الأراضي في أوروبا الشرقية واحتلالها ستكون باهظة بالنسبة لروسيا، وعلى حد تعبير بوتين نفسه ذات مرة: "من لا يفتقد الاتحاد السوفيتي ليس لدية قلب، ومن يريد استعادته ليس لديه عقل". ويلاحظ ميرشايمر أن القادة الغربيين نادراً ما وصفوا روسيا بأنها تشكل تهديداً عسكرياً لأوروبا قبل العام 2014. وكما أشار السفير الأمريكي السابق لدي موسكو، مايكل ماكفول، فإن استيلاء بوتين على شبه جزيرة القرم لم يكن شيئاً مخططاً له لفترة طويلة، لقد كان خطوة تلقائية ومندفعة رداً على الانقلاب الذي أطاح بالزعيم الأوكراني الموالي لموسكو. وبمجرد أن بدأت الأزمة، لم يستطع صانعو السياسة الأمريكيون والأوروبيون الاعتراف باستفزازهم لروسيا من خلال محاولة دمج أوكرانيا في الغرب، وأعلنوا أن المصدر الحقيقي للمشكلة هو نزعة روسيا الانتقامية ورغبتها في الهيمنة على أوكرانيا، إن لم يكن غزوها.

ويؤكد ميرشايمر أن قصته حول أسباب الصراع "لا ينبغي أن تكون مثيرة للجدل، بالنظر إلى أن العديد من خبراء السياسة الخارجية الأمريكيين البارزين حذروا من مغبة توسع الناتو منذ أواخر التسعينيات. وقد أدرك وزير الدفاع الأمريكي في وقت انعقاد قمة بوخارست، روبرت جيتس، أن "محاولة جلب جورجيا وأوكرانيا إلى الناتو كانت مبالغاً فيها حقاً". ويخلص ميرشايمر إلى القول بأنه "ربما أساء السيد بوتين تقدير القدرات العسكرية الروسية، وفعالية المقاومة الأوكرانية، ونطاق وسرعة الرد الغربي، إلا أنه لا ينبغي لأحد أن يقلل من الكيفية التي تصبح بها القوى العظمى قاسية بلا رحمة عندما تعتقد أنها في وضع صعب ... وقد تكون أمريكا وحلفاؤها قادرين على منع تحقيق انتصار روسي في أوكرانيا، لكن ذلك البلد سيتضرر بشدة، إن لم يتم تقطيع أوصاله. وإضافة إلى ذلك، ثمة تهديد خطير بحدوث تصعيد خارج أوكرانيا، ناهيك عن خطر نشوب حرب نووية"[24].

والواقع أن التحليلات المشار اليها تقترب كثيراً مما أشار إليه بوتين في خطابيه في 21 و24 فبراير الماضي، خاصة تقييمه الخاص بأن هناك نوعاً من بناء القوة العسكرية يجري في أوكرانيا، ويعزز من هذا النظر، ما أشار اليه بعض المحللين المستقلين من أن قرار ردع روسيا كان قد اتخذه الناتو كأولوية منذ عام 2014 بعد أن قرر الرئيس بوتين ضم شبه جزيرة القرم، فمنذ ذلك التاريخ انقطعت العلاقة بين الحلف وروسيا بحكم الأمر الواقع[25]، ونظرت موسكو إلى الحلف دائماً على أنه، وقبل كل شيء، منصة للوجود العسكري الأمريكي في أوروبا. وفي فترة ما بعد الحرب الباردة اتسع نطاق هذه الرؤية لتشمل حلفاء الولايات المتحدة الأوروبيين، الذين من المفترض أنهم شركاء لروسيا في مجلس روسيا / الناتو، الذي تم تعليق العلاقات بين الجانبين في إطاره منذ أكتوبر 2021، مع الحشد العسكري الروسي على الحدود مع أوكرانيا.

والواقع أن هناك تحليلات عديدة وتقارير غربية تؤكد أنه بدءاً من منتصف نوفمبر 2021، عمل الرئيس بايدن على بناء استجابة غربية جماعية على الغزو الروسي المحتمل، وأطلع كبار مسئولي المخابرات الأمريكية الحلفاء على خطط بوتين، وتبادلوا معلومات حساسة لا يراها حتى كبار المسئولين الأمريكيين عادة. وتواصل الدبلوماسيون الأمريكيون مع نظرائهم لتحديد حزم العقوبات المحتملة[26].

ثالثاً: الرؤية الأوكرانية للاستدعاء الروسى للتاريخ:

اهتم كبار المسئولين الأوكرانيين بالرد على سرديات روسيا ارتباطاً بأوكرانيا وتاريخها وعلاقاتها بروسيا، وإبراز أن ما يشار إليه في هذا الشأن محض مغالطات. وعلى سبيل المثال، أشار وزير الخارجية "ديميترو كوليبا" في مقال له بدورية الشئون الخارجية في 10 ديسمبر 2021[27] إلى أن شعب أوكرانيا اتخذ خياراً في عام 2013، بعد أن سعى الرئيس الأوكراني (آنذاك) فيكتور يانوكوفيتش، بناء على طلب بوتين، إلى مخالفة الرأي العام ودمج البلاد مع روسيا بدلاً من الاتحاد الأوروبي. ويضيف أنه في نوفمبر من ذلك العام، خرج الأوكرانيون إلى الشوارع فيما سمي باحتجاجات "ميدان أوروبا" ”Euromaidan“، وأطاحوا بالرئيس الذي حاول قمع المظاهرات بالقوة الغاشمة". ووفقاً للوزير الأوكراني، كانت أوكرانيا دولة محايدة في عام 2014، "سواء على الورق أو في الواقع". وقبل ذلك بأربع سنوات، "وضعت رسمياً حدًا لطموحاتها في الانضمام إلى حلف الناتو، عندما أصدرت قانوناً ينص بوضوح على أنها بلد غير منحاز

لا ينوي الانضمام إلى أي تحالف عسكري". ولم تكن هناك مناقشة عامة في البلاد حول عضوية الحلف آنذاك أيضاً، ولم تركز احتجاجات "الميدان الأوروبي"، على التحالف العسكري، بل على التكامل الاقتصادي والسياسي مع الاتحاد الأوروبي. "وإذا فشل الحياد في منع بوتين من شن حرب في عام 2014، فمن الصعب أن نرى لماذا سيوقفه ذلك الآن". وفي الوقت الذي تجاهل فيه الوزير الأوكراني أي إشارة إلى الإرث الثقافي والديني المشترك بين بلاده وروسيا، وصف بعض المقترحات التي قدمتها مجموعة مينسك لتخفيف حدة التوتر مع روسيا، بما فيها التحدث مباشرة إلى القيادات الانفصالية في دونيتسك ولوجانسك بأنها مقترحات "غير حكيمة"، رفضتها أوكرانيا، "ولسبب وجيه: روسيا طرف في الصراع ولن نسمح لها بأن تقدم نفسها كوسيط" (بين الحكومة في كييف والانفصاليين). ولكي يؤسس وجهة نظره، استدعى كوليبا تجربة إقليم "ترانسنيستريا" الانفصالي في مولودوفا منذ عام 1992، والذي ذكر أن روسيا هي مَن حرضته على الانفصال وطالبت الحكومة المولدوفية بالتحدث إلى قياداته مباشرة مع قيام موسكو بدور الوسيط بينهما، وهو ما لم يؤدي إلى أية نتائج، وأن القوات والأسلحة الروسية ماتزال في هذا الإقليم حتى الآن.

ويعتقد كوليبا أن ما قيل عن تعهد وزير الخارجية الأمريكي آنذاك جيمس بيكر للرئيس السوفيتي ميخائيل جورباتشوف، خلال المفاوضات حول إعادة توحيد ألمانيا في عام 1990، بأن الناتو لن يتوسع شرقاً أبداً، أن "هذه الرواية هي قصة خرافية"، وأن "بوتين يبحث عن مبرر أيديولوجي جديد فيما يتصل بأوكرانيا"، بما يسمح له بـــ "محاولة إعادة صياغة النظام الأمني في أوروبا في فترة ما بعد الحرب الباردة".

والحقيقة أن ما أورده وزير الخارجية الأوكراني في ختام مقاله كمقترحات لحسم الصراع مع روسيا، أو ما وصفه بـ "خطة الردع الشاملة" لموسكو، هي تماماً التدابير والإجراءات التي اتخذها حلف الناتو بقيادة الولايات المتحدة ضد روسيا منذ بدء الحملة العسكرية وحتى الآن. فقد ذكر الوزير: "تقوم أوكرانيا وشركاؤها حالياً بصياغة خطة الردع الشاملة والتي تشمل عناصر ثلاث، الأول هو إرسال إشارات سياسية واضحة إلى موسكو. وهذا يعني أن نجعل من الواضح أن أوكرانيا جزء من الغرب وعضو مستقبلي في الاتحاد الأوروبي وحلف الناتو، وأن سيادة أوكرانيا وسلامتها الإقليمية غير قابلتين للتفاوض. وينطوي

العنصر الثاني من الخطة على عواقب: ففي أسوأ سيناريو للغزو، سيشن الغرب عقوبات صارمة. إن صياغة هذه التدابير المدمرة الآن قد تفرض الحاجة إلى قيام الغرب بتطبيقها في وقت لاحق. أما العنصر الثالث والأخير من الخطة، فهو تعميق المساعدات العسكرية المقدمة إلى أوكرانيا ...". وهذا هو ما يجري بالفعل الآن. ومن الواضح أن النظام الحاكم في كييف قد وضع رهاناته كلها على الولايات المتحدة والحلفاء ولا يرى بدائل أخرى. والملفت هنا أن الرئيس زيلينسكى وحكومته كانت محل انتقادات شديدة واتهامات واسعة بالفساد وسوء الإدارة خلال العامين الماضيين وحتى ما قبل الحشد العسكري الروسي على الدولة الأوكرانية. وتجري الآن الإشادة بالرئيس وشجاعته وتقديمه على أنه يدافع عن الديمقراطية والحرية وقيم العالم الحر.

رابعاً: دروس التاريخ وفرص تسوية الصراع في أوكرانيا:

سبقت الإشارة إلى أن هناك عدداً لا يُستهان به من الكُتّاب والمحللين في الغرب الذين يتفهمون، رغم إدانتهم للتدخل العسكري الروسي، موقف موسكو في سياقة التاريخي وفي الإطار الجيوسياسي الأوسع، لاسيما ارتباطاً بصراع القوى الكبرى وتوازنات القوى. ويشير هؤلاء، في هذا السياق، إلى أنه حتى يمكن لواشنطن صياغة سياسة أمريكية قابلة للتطبيق تجاه القوى الكبرى الأخرى في العالم، يتعين عليها فهم الكيفية التي ترى بها هذه القوى الكبرى نفسها ومصالحها الحيوية ومكانتها في هذا العالم. ويصدق ذلك على روسيا "إذا ما أردنا سياسة من شأنها أن تضع حداً لهذه الحرب وانسحاباً روسياً من أوكرانيا واستعادة السيادة الأوكرانية" (28).

ويرى هذا التحليل أنه مثلما تؤمن النخبة الأمريكية بالهيمنة العالمية للولايات المتحدة، ترى النخبة في موسكو أنها يجب أن تكون قطباً ضمن أقطاب أخرى متعددة في عالم اليوم. وتعد أوكرانيا عاملاً حاسماً في هذه الرؤية، ذلك أن أوكرانيا المعادية لروسيا، والمرتبطة بقوة مع الغرب، سوف تمنع موسكو من قيادة كتلة إقليمية قوية من الدول في مواجهة الغرب. ويضيف التحليل أنه من هذا المنظور، لم يفهم معظم المراقبين مرارة الهزيمة التي مُنِيت بها روسيا عندما شهدت أوكرانيا ثورة عام 2014، ورفضت عضوية الاتحاد الاقتصادي الأوروآسيوي الذي أعلن بوتين عن إنشائه في عام 2011. وفضلاً عن كونها أكبر جمهورية سوفيتية سابقة، بعد روسيا، من حيث عدد السكان (44 مليون نسمة)، تستضيف أوكرانيا أكبر أقلية عرقية

روسية خارج روسيا. وبدون أوكرانيا الناطقة بالروسية إلى حد كبير، تفقد الروسية معظم مكانتها كلغة دولية، وبدون عضوية أوكرانيا في الاتحاد الاقتصادي الأوروآسيوي، سيظل هذا الأخير كياناً متواضعاً. وتخلص وجهة النظر هذه إلى القول بأنه منذ إدارة يلتسين في تسعينات القرن الماضي، بدت موسكو مصممة تماماً على وجوب ألا تنضم أوكرانيا إلى أي تحالف مناهض لروسيا.

ووفقاً لهذا التحليل، يتجاوز اهتمام روسيا بأوكرانيا الاعتبارات الاقتصادية والاستراتيجية بكثير. وقد ظلت مقالات بوتين وخطاباته ارتباطاً بأوكرانيا مركزة على الهوية الثقافية والتاريخية للروس وارتباط هذه الهوية بهوية أوكرانيا، أخذاً في الاعتبار أن أصول الدولة الروسية والديانة الأرثوذكسية في "كييف روس"، وكذا دور الأوكرانيين في الثقافة الروسية الحديثة، على النحو الذي يرمز إليه "نيكولاي جوجول"، الكاتب الأوكراني الكبير الذي تماهى مع الإمبراطورية الروسية وكتب باللغة الروسية. وفي تقدير هذا الرأي أن هذا العامل يضفي عنصراً قوياً من القومية القائمة، تاريخياً، على الموقف الروسي وبوتين تجاه أوكرانيا، مضيفاً أن هناك بعض التفهم في روسيا لماذا يريد الأوكرانيون دولتهم الخاصة بهم، ولكن لا يوجد تفهم لأي أسباب تجعل الأوكرانيين يرغبون في أن تكون هذه الدولة ضد روسيا أو في حالة عداء معها(29).

وهكذا، ففي تقدير "أناتول ليفين"، فعلى حين يستخدم المسئولون الروس مصطلح "عقيدة مونرو" لشرح وتبرير رغبتهم في منع أوكرانيا من الانضمام إلى تحالف معاد، فإن مصلحتهم في ذلك البلد تكتسب قوة عاطفية غائبة تماماً عن مواقف الولايات المتحدة تجاه المكسيك. وتهدف الحكومة الروسية إلى إنشاء مجال نفوذ روسي، وليس نسخة جديدة من الاتحاد السوفيتي. وقد صرح بوتين بأن "مَن لا يرغب في تذكر الاتحاد السوفيتي ليس لديه قلب، ولكن مَن يريد استعادته ليس لديه عقل".

من ناحية أخرى، عندما يتحدث بعض المحللين الأمريكيين عن السيناريوهات الخاصة بمآلات الحرب الدائرة في أوكرانيا وكيفية تسوية الصراع، بما يكفل نوعاً من الاستقرار والأمن المستدام في القارة الأوروبية، لا يتجاهل دورس التاريخ، وبصفة خاصة فترة الحرب الباردة. وكمثال على ذلك، أشار ريتشارد هاس، رئيس مجلس العلاقات الخارجية الأمريكي، في مقال له مؤخراً بدورية الشئون الخارجية (30) إلى أنه من المفيد أن تضع الولايات المتحدة الأمريكية في اعتبارها درسين من دروس الحرب الباردة، ضمن استراتيجيتها لأوكرانيا: **الأول**: تجنب الصراع المسلح المباشر، ما لم تكن المصالح الأمريكية الحيوية

مهددة. **الثاني**: هو قبول نتائج أقل من المثلى لتجنب تهديد المصالح الحيوية، وهو أمر يمكن أن يؤدي بسهولة إلى الحرب.

ويضيف هاس أن هذا الاعتراف بوجود حدود لأهداف الولايات المتحدة يعني احتواء روسيا، بمعنى أنه "قد يكون من الحكمة في هذه المرحلة، ترك محاولات أوكرانيا استعادة الدونباس، وشبه جزيرة القرم (لتجنب التصعيد الروسي) لفترة ما بعد الصراع، أو حتى فترة ما بعد بوتين، حيث يمكن للغرب أن يخفف العقوبات مقابل توقيع روسيا اتفاقية سلام رسمية. وقد يسمح مثل هذا الاتفاق لأوكرانيا بالتمتع بعلاقات رسمية مع الاتحاد الأوروبي وضمانات أمنية، حتى مع بقائها محايدة رسمياً وخارج حلف الناتو.

ويوضح هاس أن الدرس الأول من الحرب الباردة ينعكس بالفعل في السياسة الغربية الحالية تجاه أوكرانيا. فقد وضحت واشنطن منذ بداية الأزمة، أنها لن تضع قوات على الأرض أو تنشئ منطقة حظر جوي، لأن القيام بذلك يمكن أن يجعل القوات الأمريكية والروسية على اتصال مباشر يزيد من خطر التصعيد. وبدلاً من ذلك اختارت واشنطن وشركاؤها في الناتو استراتيجية غير مباشرة تقوم على توفير الأسلحة والمعلومات الاستخبارية والتدريب لأوكرانيا مع الضغط على روسيا بفرض عقوبات اقتصادية وعزلة دبلوماسية. أما بالنسبة للدرس الثاني، فقد نجح قرار الولايات المتحدة والحلف بمتابعة أهدافهما من خلال وسائل محدودة إلى حد كبير. ولم يمنع هذا الخيار روسيا من تدمير المراكز المدنية والبنية التحتية في أوكرانيا.

ويخلص هاس إلى القول بأن الأمر يتعلق بحرب طويلة، تتركز في شرق وجنوب أوكرانيا، رغم أن روسيا ستحتفظ بالقدرة على مهاجمة أهداف أخرى. ويشاطر هاس كُتّاب أمريكيون آخرون يرون أنه يتعيّن على صناع السياسة الغربيين أن يعدوا أنفسهم لحرب طويلة الأمد، وأن أدوات السياسة المتاحة لديهم – مثل المساعدات العسكرية والعقوبات – لن تتغير بغض النظر عن مدة الحرب[31] ومن وجهة نظر هاس، يجب على الولايات المتحدة وشركائها في الناتو التشاور حول أهداف الحرب، وأنه على المدى القريب من غير المرجح أن ينطوي النجاح الغربي في المعركة على معاهدة سلام، أو نهاية حقيقية للصراع، أو تغيير النظام في روسيا. وبدلاً من ذلك، سيكون إنهاء الأعمال العدائية بمثابة نجاح في الوقت الحالي، خاصة وأن روسيا لا تسيطر على أراض أكثر مما كانت تسيطر عليه قبل 24 فبراير2022، وأنها لم تستخدم أسلحة الدمار

الشامل. وبمضي الوقت، يمكن أن يستخدم الغرب مزيجاً من العقوبات والدبلوماسية في محاولة لتحقيق انسحاب عسكري روسي كامل من أوكرانيا، إلا أن هذا النجاح سيكون أبعد ما يكون عن الكمال.

والخلاصة هي أنه منذ عام 1991، ظل وزن الإرث التاريخي للإمبراطورية الروسية والاتحاد السوفيتي بمثابة أحد المحركات الرئيسية للسياسة الخارجية الروسية. ولم يترك الانهيار السريع لحلف وارسو والاتحاد السوفيتي وقتاً طويلاً للتفكير وإعادة تقييم ورسم السياسة الخارجية لروسيا الجديدة. فقد تحول البحث عن أسس جديدة إلى فترات ماضية من العظمة الروسية والسوفيتية. وفي هذا السياق، جاء وصف بوتين لانهيار الاتحاد السوفيتي بأنه "الكارثة الجيوسياسية الأكبر في القرن العشرين". وكثيراً ما يستدعي الرئيس الروسي إرث الحرب العالمية الثانية أو الحرب الوطنية العظمي، كما تُسمى في روسيا، كعامل رئيسي آخر يشكل السياسة الخارجية الروسية. ويُشار في ذلك إلى الدور الحاسم الذي لعبه الاتحاد السوفيتي في إلحاق الهزيمة بألمانيا النازية وتضحيات الشعب الروسي في هذا الشأن بما يُقدر بنحو 27 مليون من الضحايا العسكريين والمدنيين، وهو ما كان سبباً في منح روسيا مكانة خاصة عالمياً وامتيازات كقوة رئيسية معاصرة، بما في ذلك مقعدها الدائم في مجلس الأمن والاعتراف بها كقوة عسكرية نووية عالمياً. ومن وجهة نظر الرئيس بوتين، فإن الضرر الناجم عن كارثة تفكك الاتحاد السوفيتي لابد من إصلاحه واستعادة قدر من العمق الاستراتيجي الذي فقدته موسكو بسبب توسع الناتو شرقاً. وعلى حين نَظَرَ الغرب لعقد التسعينيات من القرن الماضي، على أنه فترة من السلام والازدهار والتجديد بعد الحرب الباردة، تتذكر روسيا تلك الفترة باعتبارها فترة من عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي والثقافي والانهيار الاقتصادي والتبعية للغرب، وتقلص وضعية روسيا في العالم، وأنه في بدايات الألفية الثالثة عزز الكرملين السياسة الداخلية، وتحرَّك نحو الحدّ من التدخل والنفوذ الغربي في الشئون الداخلية في البلاد، والسعي إلى الاعتراف بروسيا كقوة رئيسية ومُعارضِة للعالم أحادي القطبية بقيادة الولايات المتحدة، وهو محرك قوي آخر للسياسة الخارجية الروسية. ومازالت روسيا بوتين تعتقد أن الولايات المتحدة ماتزال غير مستعدة لتغيير الوضع القائم، كما أنها غير مستعدة لمشاركة أي قوة أخرى نفوذها، حتى أقرب حلفائها. لذا اختارت روسيا عدم الاندماج في الهياكل الأوروبية والأوروأطلسية بشروط الشراكة غير المتكافئة التي يقدمها الغرب.

ومع ضمِّ شبه جزيرة القرم عام 2014، ثم عمليتها العسكرية في سوريا في العالم التالي، والآن تدخّلها العسكري في أوكرانيا، أصبحت روسيا خصماً يجب معاقبته ووضعه في مكانه من خلال الضغط، وخاصة العقوبات، الأمر الذي من غير المُرجَّح أن يردع روسيا بوتين، الذي يبدو، بدوره، مُصمِّماً على استعادة نفوذ روسيا، حتى بالوسائل العسكرية، رغم المخاطر الاستراتيجية لذلك.

الهوامش:

---

[1]- Dmitri Trenin, Russia's Changing Identity: In Search of a Role in the 21st Century. Available at: https://carnegiemoscow.org/commentary/79521

[2] - M. E. Sarotte: Containment Beyond the Cold War, How Washington Lost the Post-Soviet Peace, Foreign Affairs, November- December, 2021, https://www.foreignaffairs.com/articles/russia-fsu/2021-10-19/containment-beyond-cold-war

[3] -انظر خطاب الرئيس بوتين في 21 فبراير 2022، على الرابط التالي https://tinyurl.com/mwzuxam2

[4] - Dmitri Trenin: What a Week of Talks Between Russia and the West Revealed? Feb. 15, 2022. https://carnegiemoscow.org/commentarty/86222.

[5]- Ibid.

[6] - حول أجندة القمة وما خلصت اليه من نتائج وتقييم لها راجع: سفير د. عزت سعد: القمة الأمريكية / الروسية: أهمية انعقادها رغم تواضع نتائجها – مجلة شئون عربية – العدد 187 – خريف 2021 – ص ص 110 – 120.

[7] -انظر في ذلك على سبيل المثال:

-Maria Popova & Oxana Shevel: Putin Cannot Erase Ukraine, No Russian Invasion Can undo Ukrainian Nationhood, Foreign Affairs, Feb. 17, 2022, https://www.foreignaffairs.com/articles/ukraine/2022-02-17/putin-cannot-erase-ukraine.

وانظر أيضاً:

Oona A. Hathaway: International Law Goes to War in Ukraine, the Legal Pushback to Russian's Invasion, Foreign Affairs, March, 15, 2022, https://www.foreignaffairs.com/arricles/ukraine/2022-03-15/intwernationa-law-goes-war-ukrine

[8]- Dmitri Trenin: Mapping Russia's New Approach to the Post-Soviet Space, Carnegie Moscow, Feb. 15, 2022, https://carnegiemoscow.org/commentary/86438

[9] - من هؤلاء على سبيل المثال:

Andrea Kendall – Taylor & Erica Frantz: The Beginning of the End for Putin? Dictatorships Look Stable – Until they Aren't, Foreign Affairs, March 2nd, 2022,

https://www.foreignaffairs.com/articles/russian-federation/2022-03-02/beginning-end-putin
Alina Polakova and Daniel Fried: Putin's Long Game in Ukraine How the West Can Still Protect Kyiv, Foreign Affairs, Feb.23, 2022; https://www.foreignaffairs.comarticles/ukraine/2022-02-23/putins-long-game-ukraine

10 - Anna Reid: Putin's War on History: The Thousand –Year Struggle Over Ukraine, Foreign Affairs, May- June 2022, https://www.foreignaffairs.com/articles/ukraine/2022-04-06/putins-war-history-ukraine-russia.

11 - Ibid.

12- Stephen Kotkin: The Cold War Never Ended: Ukraine, the China Challenge, and the Revival of the West, Foreign Affairs, May – June 2022, https://www.foreignaffairs.com/reviews/review-essay/2022-04-06/cold-war-never-ended-russia-ukraine-war

13- انظر في ذلك:
Alexander Vindman: stop Tiptoeing Around Russia, It is time to End Washington's Decades of Deference to Mosocw, Foreign Affairs. Aug. 8, 2022, https://www.foreignaffairs.com/united-states/stop-tiptoeing-around-russia.

14 - Samuel Charap & Michael Mazarr: The Wisdom of U.S. Restraint on Russia, As in the cold war, Washington cannot wish Moscow Away, Foreign Affairs, Sept, 12, 2022, https://www.foreignaffairs.com/united-states/wisdom-us-restraint-russia.

15 -انظر:
Daniel Treisman: Putin Unbound How Repression at Home Presaged Belligerence Abroad, Foreign Affairs, May – June 2022, https://www.foreignaffairs.com/articles/ukraune/2022-04-06/putin-russia-ukracne-war-unbound

وانظر أيضاً:
Ivo H. Daalder & James M. Lindsay: Why Putin Underestimated the West, And How to Sustain Its Newfound Unity, Foreign Affairs, April 7, 2022, https://www.foreignaffairs.com/articles/russian-federation/2022-04-07/why-putin-underestimated-west

[16]- Ibid, (Ivo H. Daalder & James M. Lindsay).

[17] - Eugene Rumer, Richard Sokolsky: Thirty Years of U.S. Policy Toward Russia: Can the Vicious Circle Be Broken? Carnegie Endowment, June 20, 2019, https://carnegieendowment.org/2019/06/20/thirty-years-of-u.s-policy-toward-russia-can-vicious-circle-be-broken-pub-79323

[18]- Ibid.

[19]- Anatol Lieven: Vindicating Realist Internationalism Survival, Vol. 63, No. 5, October – November 2021, Pp. 7- 34. https://doi.org/10.1080/00396338.2021.1978746

[20] -فى تفاصيل ذلك، راجع:

M. E. Sarotte: Containment Beyond the Cold War, How Washington Lost the Post-Soviet Peace, Op. Cit.

[21]- Ibid.

[22] - Ibid.

[23] - John Mearsheimer: Why the West Is Principally Responsible for the Ukrainian Crisis?, the Economist, March 19, 2022, https://www.economist.com/by-invitation/2022/03/11/john-mearsheimer-on-why-the-west-is-principally-responsible-for-the-ukrainian-crisis

[24]- Ibid.

[25] - Dmitri Trenin: Why Russia Officially Broke with NATO, Oct. 20, 2021, https://carnegiemoscow.org/2021/10/20/why-russia-officially-broke-with-nato-pub-85611

[26] - Ivo H. Daalder & James M. Lindsay; Why Putin Underestimated the West, Op. Cit.

[27] -Dmytro Kuleda: Don't sell out Ukraine: The West must Respond to Russia with Strength, Not Appeasement, Dec. 10th, 2021, https://www.foreignaffairs.com/articles/ukraine/2021-12-10/dont-sell-out-ukraine.

[28] - Anatol Lieven: Ukraine, What Russia Wants, What the West Can Do? Feb. 5, 2022, https://responsiblestatecraft.org/2022/02/25/ukraine-what-russia-wants-what-the-west-can-do/

[29]- Ibid.

[30] - Richard Haass: What Does the West Want in Ukraine? Defining Success – Before It's Too Late, Foreign Affairs, April, 22, 2022, https://www.foreignaffairs.com/articles/russion-federation/2022-04-22/what-does-west-want-ukraine.

[31] - Liana Fix & Michael Kimmage; What if the War in Ukraine Doesn't End? The Global Consequences of a Long Conflict, Foreign Policy, April 20th, 2022, https://www.foreignaffairs.com/articles/ukraine/2022-04-20-what-if-war-ukraine-doestnt-end